نشأة خالد . .

خالدُ بنُ الوليد بنِ المغيرة أحدُ سبعةِ إخوةٍ من الذكور وقيل عشرة ، بل ثلاثةَ عشَر بين ذكور وإناث ، ومنهم أختان .

وقد تقدم إجمالُ القول فى شرف قومه ونصيبِ أعمامه خاصةً من الرئاسة والزعامة . أما أبوه الوليد فقد كان الرأسَ بين الرءوس والزعيمَ بين الزعماء ، وكانت له فى بعض نواحى خُلُقِه وعقله لمحاتُ تلك المواهب التى تجلت بعد ذلك فى عبقرية ولده العظيم

كان أغنى أبناء زمانه فى صفوف الثراء المعروفة بينهم كافةً : الذهبِ والفضة والبساتين والكروم والتجارة والعُروض[1] ، والخدم والجوارى والعبيد ، وسمى من أجل ذلك بالوحيد ، ولُقِّب من أجل ذلك بريحانة قريش . . .

وهو الذى قال فيه القرآن الكريم من سورة المدثر : « ذَرْنِى ومَنْ خلَقتُ وَحِيدا ، وجعلتُ لهُ مالاً مَمْدوداً ، وَبنِينَ شُهُوداً ، ومَهَّدتُ لهُ تَمْهِيدا »

ويروى سُفْيانُ الثورى أنه كان يملِك ألفَ ألفِ دينار ،

(١) العروض : الأمتعة التى لا يدخلها كيل ولا وزن ولا تكون حيواناً ولا عقاراً .

ويروى ابنُ عباس أنه كان يملك من الفضة تسعةَ آلافِ مثقال .

ولكبريائه فى جوده أو جوده فى كبريائه كان ينهى أن توقدَ نارٌ غيرُ نارِه فى مِنىً لإطعام الحجيج .

وكان يأنف لنفسه فى الجاهلية أن يُرَى سكرانَ على إباحة الخمر[1] وشيوعها فى تلك الأيام ، فانتهى عنها بغير ناهٍ ، وقيل إنه قطع يدَ السارق على سبيل القِصَاص . . .

وقد كان من أصحاب الحيلة والحَوْل[2] والإقدام : ضربةٌ من ضَرَباته فى موقف اللبِّس والتردد تُرينا فيه أبا خالدٍ قبل أن يعرفَ العالمُ ضرباتِ خالد ، وذاك يومَ تداعتْ الكعبة وأوجس المشركون أن يهدموها ليعيدوا بناءها ، توقيراً لتلك الحُرمة التى كانوا يقاربونها بالضراعة والخشوع ، ويدخلها بعضهم حفاة الأقدام ، ولم يقربوها قطُّ بهدمٍ أو عُدوان . فلما رأى وَسواسَهم وفرعَهم تناول المعول وضرب الضربةَ الأُولى بيديه وهو يقول : « اللهم لم تُرَع[3] . اللهم لا نريد إلا الخير » ومضى فى أثره الهادمون غير متهيِّبين . . .

ويؤخذ من بعض أحاديثه مع أبى جهل أنه كان من أفقه الناس

---

(١) على إباحة الخمر : أى (بالرغم من إباحة الخمر) .

(٢) الحول : القوة ، والحيلة .

(٣) لم ترع : لم تخف

لمعانى الكلام ومن أحفظهم للشعر والخطب فى أيامه .

« قام النبى صلى الله عليه وسلم فى المسجد يصلى والوليدُ بنُ المغيرة قريبٌ منه يسمع قراءتَه ، فلما فطن النبىُّ صلى الله عليه وسلم لاستماعه أعاد قراءة الآية ، فانطلق الوليدُ حتى أتى مجلسَ قومه من بنى مخزوم ، فقال : والله لقد سمعتُ من محمد آنفاً[1] كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن . والله إن له لحلاوةً وإن عليه لطلاوة[2] ، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفلَه لمُغدِق[3] . وإنه يعلو وما يُعْلَى . . » ثم انصرف إلى منزله » .

فقالت قريش : صبأ[4] والله الوليدُ ولتصْبَأَنَّ قريشٌ كلُّهم . فأوفدوا إليه أبا جهل يحتال لصرفه عن الإسلام إن كان قد نوى الدخول فيه ، وما زال به حتى قام معه إلى مجلس قومه فقال لهم : تزعمون أن محمداً مجنون ، فهل رأيتموه يُخْنَق[5] قط ؟ تزعمون أنه كاهن فهل رأيتموه قط تكهَّن ؟ تزعمون أنه شاعر وما فيكم

---

(١) آنفاً : من قبل .

(٢) الطلاوة : الحسن ، (بفتح الطاء أو ضمها) .

(٣) مغدق : غزير فياض .

(٤) صبأ : خرج عن دينه .

(٥) يخنق : رواية ابن هشام (لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بخنقه ولا تخالجه إلخ » والخنق : هو الاختناق الذى يصيب المجنون .

أحد أعلم بالشعر منى ، فهل رأيتموه ينطق بشعرٍ قط. ؟ تزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب .

يسألهم ويجيبونه : كلا ، فى كل سؤال .

حتى أعياهم أن يردوا كلامه فسألوه رأيه فى تفسير بلاغةِ القرآن نفكر ثم قال : ما هو إلا سحرٌ يؤثَرَ[1] ! أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ؟ فهو ساحر وهذا هو السحر المبين . . فذاك إذ يقول القرآن الكريم : « إنَّهُ فكَّرَ وقَدَّرَ ، فقُتِل كيْفَ قَدَّرَ ، ثُمَّ قُتِل كيْفَ قَدَّرَ ، ثُمَّ نَظَر ، ثُمَ عَبَس وبَسَرَ[2] ، ثمَّ أدْبرَ واسْتَكْبر ، فقال إنْ هذا إلاَّ سِحرٌ يُؤْثر »

واختلف المفسرون فى تفسير المعنى المقصود بالعُتُلِّ الزنيم[3] الذى قيل إنه نزل فيه . .

فرأى بعضهم أن الزنيم هو الدعىُّ ، وأن الوليد بنَ المغيرة يوصف به لأن أباه ادعاه[4] بعد ثمانى عشرةَ من مولده .

ورأى بعضهم أن الزنيم وصف له من زَنَمةٍ كان يعرف بها فى عنقه ، وهى اللحمة المدلاَّة . ويخالفهم آخرون فيقولون إن الرجل

---

(١) سحر يؤثر : ينقل عن الأولين

(٢) عبس وبسر : قطب وجهه وزاد فى كلوحه .

(٣) العتل : الغليظ الجاف ، والآية « عتل بعد ذلك زنيم » .

(٤) ادعاه : نسبه إليه واعترف ببنوته .

الذى كان يُعرف بهذه الزنمة هو الأخنسُ بنُ شريق ، وكان أصلُه من ثَقيف وعِدادُه فى زهرة[١] . .

وفى رواية أنه عليه الصلاة والسلامُ سئل عن العُتُل الزنيم فقال إنه هو الفاحش اللئيم . وغير ذلك من الروايات والتأويلات كثير . كثير .

إلا أن الذى يعنينا فيما نحن بصدده أن الوليد لم يُنْسَب قط إلى أحد غيرِ أبيه المغيرة ، وأن المغيرةَ لم يكن بحاجة إلى استلحاق[٢] ولد غريب عنه لكثرة أولاده ونجابتهم بين فتيان مخزومٍ وقريش عامة ، وأن شَبَه الوليد ببنى المغيرة ظاهرٌ حتى فى بعض الفروع البعيدة . فإن عمر بن الخطاب كانت أمهُ قريبةَ خالد بن الوليد ، وكان يشبهه أقربَ الشَّبَه كما يتفق فى أيامنا هذه كثيراً بين أبناء العمات والأخوال ، وأن غير الوليد لأَوْلى بذلك الوصف لما تقدم من اعتزاز قريش بنسبته فيهم حتى لقب بريحانه قريش وسمى بينهم بالوحيد .

وعلى أية حال قد نشأ خالد فى بيت الوليد بن المغيرة وهو سيدُ بنى مخزوم وأحدُ السادات المعدودين فى قريش ، وصاحبُ الكلمة التى يتعلق بها مصيرُ قومِه فيما يجنَح إليه من شِرعة أو دين ..

---

(١) ثقيف وزهرة : قبيلتان .

(٢) استلحاق : استلحاق الولد : أن ينسبه إليه ويخبر أنه ابنه .

أما أمه فهى لبابةُ بنت الحارث الهلالية ، وهى أخت ميمونَة أمِّ المؤمنين زوج النبى عليه الصلاة والسلام ، وأختُ لبابة بنت الحارث الكبرى زوج العباس عمه ، وأخت أسماء بنتِ عميس التى تزوجها جعفر بن أبى طالب ثم أبو بكر الصديق ، ثم علىٌّ ابن أبى طالب ، ولها أخواتٌ أخريات بَنَى[1] بهن رجالٌ من ذوى الأخطار ومقاديم[2] العشائر النابهين .

وندَر فى بيوت العرب النبيلة بَيتٌ لم يكن له صلةٌ بخالدٍ ودويه بالنسب والمصاهرة ، من جانب أمه أو جانب أبيه .

والأقوال فى سن خالد وتاريخ مولده لا تنتهى إلى قول يمتنع فيه الخلاف . فمن المؤرخين من يقول إنه مات وله من العمر ستون سنة . فإذا كان قد مات فى السنة الحادية والعشرين أو الثانية والعشرين للهجرة فقد وُلد إذن فى السنة الثامنة والثلاثين أو السنة التاسعة والثلاثين قبل الهجرة . .

ولكنه قول يحول دون تصديقه والأخذ به أن خالداً كان صغير السن فى عام الفتح – فتح مكة – كما يُفهم من تلقيب أبى سفيان له

---

(١) بنى : بنى الرجل على المرأة (وقد يقال بها) أى تزوجها .

(٢) مقاديم : جمع مقدام وهو الرجل الكثير الإقدام على العدو . ويجوز أن يريد (وجوه العشائر وأشرافها) .

بالغلام ، وشيوع هذا اللقب بين عارفيه .

فقد كان أبو سفيانَ والعباسُ يرقُبان عبورَ الكتائب والقبائل فى يوم الفتح فكان خالدُ بن الوليد أولَ من مر فى بنى سليم فسأل أبو سفيان : من هذا ؟ قال العباس : هذا خالد بن الوليد . فعاد أبو سفيانَ يسأل وهو يخنى حَنَقَه[1] : الغلام ؟ قال العباس : نعم ! كأنه لقب كان معروفاً بين شيوخ قريش .

والرجل لا يقال له «غلام» وهو فى نحو السادسة والأربعين . وقد يقال له ذلك وهو حول الأربعين إذا كان القائلون من رؤساء الشيوخ وكان اللقب قد عُرف قبل ذلك بسنوات وبقى بحكم العادة والتردد على الأفواه . فإذا كان خالد بن الوليد يومئذ فى نحو السادسة والثلاثين أو السابعة والثلاثين فمولده على التقريب بين سنتى ثمان وعشرين وثلاثين قبل الهجرة . .

وعندئذ تخطُر لنا قصة أخرى لها صلة بهذا التقدير . وهى قصة المصارعة بينه وبين عمرَ بن الخطاب وهما غلامان ، وغَلَبتِه عمرَ وكسرِه ساقَه فى هذه المصارعة ، وإنما يتصارع النِدان أو المتقاربان . وعمرُ على تقدير مشهورٍ قد وُلد قبل الهجرة بأربعين

(١) الحنق : الغيظ .

سنةً أو قُرابةَ هذا التاريخ . .

فالتوفيق بين هذه الأقوال جميعاً إنما يستقيم لنا بتأخير مولد عمرَ قليلا عن سنة أربعين ، وتقديم مولد خالد قليلا عن سنة ثلاثين ، فيرجح إذن أن يكونَ مولدُه فى نحو أربع وثلاثين قبل الهجرة ، ولا مانع إذن أن يصارع عمرَ ويغلبَه كما يغلب الفتى فى الرابعةَ عشرةَ مثلا زميلا له فى السادسةَ أو السابعةَ عشرةَ ، إذا كان مولوداً للدُّرْبة على الرياضة وألعاب الفروسية ، وكان خالد ولا شك كذلك ، لأنه ورث قيادةَ الأَعِنَّة من باكر صباه . .

نعم يظهر أنه كانت عليه مخايلُ الفروسية منذ صباه الباكر ، إذ رشحه أبوه لقيادة الخيل ولم يكن أكبرَ أبنائه ، ورأيناه على قيادة الفرسان – فرسان قريش – فى وقعة أُحُد التى أحاط فيها برُماة المسلمين من ورائهم ، فحلَّتْ الهزيمةُ بجيش المسلمين بعد انتصاره .

وقد أسلفنا أن بنى مخزوم كان لهم فى الجاهلية أمر القُبَّة والأَعِنَّة ، فالقبة هى خيمة عظيمة يضربونها ليجمعوا فيها عُدة القتال ، والأَعنة هى الخيل وفرسانها ، وولاية خالد هذه «الوظيفةَ» الموكولةَ إلى قبيلته بين بطون قريش جميعاً هى آيةُ استعداده للرئاسة والقيادة منذ صباه .

وفى أخبار خالد قصة واحدة تنفعنا فى تصور ملامحه وسِماته لقلة أوصافه المحفوظة ، على خلاف ما تعودناه من أحاديث العرب عن أبطالهم ، وهى فى الغالب مُفيضةٌ[1] فى وصف أولئك الأبطال.

تلك القصة هى ما أشرنا إليه من المشابهة بينه وبين عمر بن الخطاب ، حتى كان أناسٌ من ضعاف النظر يخلِطون بينهما من قريب ، ولا يميِّزونهما بالرؤية ولا بسماع الصوت الخفيض .

وخلاصتها أن علقمةَ بن عُلاَّثة لقى عمرَ بن الخطاب سرًا فقال له :

مرحباً بك يا أبا سليمان ! . . ثم دنا منه فلم يميِّزْه مع دُنُوِّهِ وسماع صوته بِرَدِّ السلامِ عليه ، فقال : عَزَلك ابنُ الخطاب ؟ فأجابه عمر : نعم . فمضى علقمةُ يقول : ما يشبَع ، لا أشبعَ الله بطنَه !

وأصبح عمرُ فدعا بخالد وعلقمةَ وسأل خالداً : ماذا قال لـ علقمةُ ! فتنى أن يكونَ قد لَقِيَه أو جرى بينهما كلام . وكرر عمرُ السؤالَ ، فأقسم خالد بالله ما رآه ولا سمع منه شيئاً . .

(١) مفيضة : مسهبة مفصلة .

فقال علقمةُ كالموسِّعِ له من حَرَج[١] : حِلاًّ أبا سليمان[٢] ! . . ولم يفطِن لغلطه حتى تبسم عمرُ وأخبرهما بالحديث . .

ومن هنا نفهم أن خالداً كان طويلا بائنَ الطول ، وأنه كان عظيمَ الجسم والهامة ، مهيبَ الطلعة يميل إلى البياض .

وغنى عن تواريخ المؤرخين ولا جدال أن خالداً قد تعلم فى صباه كلَّ ما يتعلمه الفتى المرشح للحرب والفروسية وشمائل الرئاسة ، ومن الصغائر العارضة التى زعمَ أُناسٌ أنها أصلُ الجفاء بينه وبين قريبه عمرَ بن الخطاب أنه صارعه كما تقدم فغلبه وكسر ساقَه ، وهى صغيرة تنبئ عن دراية باكرة بفنون الصراع والكفاح ، ولكنها لو لم تذكر فى مصادرها لأغنانا عنها علم القائد الكبير بفنون الفروسية على أنواعها ، وسرعتُه فى مآذق النزال إلى مصارعة أقرانه ومبارزيه . واحتضانُهم بعنف شديد حتى يُعجزهم عن الحراك . .

وغيرُ بعيد أنه تعود عيشة الشظَف ، وراض نفسَه على الخشونة عمداً فى البادية ليصبر على مضانِكِ الحرب[٣] وشدائد الجوع

---

(١) كالموسع له من حرج : كأنما يريد أن يفتح الطريق لخالد لكى يخرج من الحرج الذى وقع فيه .

(٢) حلا أبا سليمان : أبو سليمان : كنية خالد بن الوليد ، والمراد بالعبارة : تستطيع أن تتحلل من قسمك (بالكفارة مثلا) وتقول الحقيقة (ظن علقمة أن خالداً كان يستر عليه) .

(٣) مضانك الحرب : شدائدها وويلاتها .

والظمأ حيثما تفرد عن موارد الزاد . فقد جاء فى بعض الأحاديث أن خالدًا كان يأكل الضبَّ[1] ويشتهيه كما يأكله الأعرابُ ويشتهونه ، وهو أغنى إنسان فى مكة أن يُسيغ هذه الأكلةَ الأعرابية ، مع يَساره وافتنان أهله فى الأطعمة الحضرية .

قال ابنُ عباس روايةً عن خالد أنه دخل مع رسول الله على خالته ميمونةَ بنتِ الحارث ، فقدمت إلى رسول الله لحمَ ضب جاءها مع قريبة لها من نجد ، وكان رسول الله لا يأكل شيئاً حتى يعلم ما هو ، فانفق النسوة ألا يخبرنه حتى يَرَيْن كيف يتذوقه ويعرفه إن ذاقه . فلما سأل عنه وعلم به تركه وعافَه[2] فسأله خالد : أحرام هو ؟ قال : لا . ولكنه طعام ليس فى قومى فأجدُنى أعافُه . . قال خالد : فاجتررته إلىَّ فأكلتُه ورسولُ الله ينظر !

ومثلُ هذه التربيةِ لقائد من قواد الحرب نَموذجٌ يُحتذَى فى كل مدرسة من مدارس الفنون العسكرية الحديثه ، وعلى سُنتها[3] كتب نابليون تقريره وهو طالب فى المدرسة الحربية يعيب على النظام يومئذ أنه يسمح لأبناء الأعيان بمعيشة التَّرَف واستصحاب الخدم

(١) الضب : حيوان من الزحافات ذنبه كثير العقد .
(٢) عافه : كرهه وأنفت منه نفسه .
(٣) على سنتها : على طريقتها .

بين جدران المدرسة ، وهم أحْرَى بخدمة أنفسهم فى مدرسة يتعلمون فيها الصبرَ على شدائد الحروب .

وكان لخالد ولا ريبَ علمٌ بالبادية العربية من غير هذا الطريق طريق الرياضةِ المقصودة إن صح ما رجَّحناه . فلعله سافر كثيرًا فى الجزيرة قبل الإسلام ، ولعله عرف فى تلك الأسفار دروبَها العصيَّة التى كان يطرُقها من العراق إلى الحجاز ومن الحجاز إلى اليمن ، ومن نجد إلى الشام ، وبعضُها كان يعتسِفُه[1] على عجل بغير أدلاَّء[2] .

ولم تكن بخالد ولا بإخوته حاجةٌ إلى التجارة لكسب العيش وتحصيل المال ، كان أبوه على تلك الثروة التى لا مزيدَ عليها فى البلاد العربية ، وكانت ثروتُه أشبهَ شىءٍ فى عصرنا هذه بثروة المصارف التى تعمل فى صفقات القروض والربا ومضاربات الأسعار . أما الثمرات والخضر فى مزارعه فلم تكن مما يُحصل إلى البلاد القصية للبيع والشراء ، وإنما قُصاراها أن تُباع فى الحواضر الحجازية وما قاربها من البوادى القادرة على شىءٍ من الترف والمتعة ، ولا سيما فى أيام الأسواق والحجيج . ولهذا فسَّر بعضُهم وصفَ بنيه

(١) يعتسفه : يقتحمه .
(٢) أدلاء : جمع دليل .

«بالشهود» فيما تقدم من الآيات بأنهم كانوا أبدًا فى صُحبته وجوارِه مفاخرةً بهم وتنزيهاً لهم عن الكدْح والتصرف فى شئون المعاش . فإن قُضِيت لأحدهم رحلةٌ أو سياحة ففى غير هذه الأغراض ، أو فى غير حاجة ملحة إلى الاتجار ، وإنما هى التُّربة والتمرُّس بالمصاعب والانتفاعُ بخبرة السياحة وآدابها ، وقد ينفقون فى ذلك خير ما يكسبون ، كما كان يصنع عمُّه «زاد الراكب» وأعمامه الآخرون الذين اشتهروا بالأَنَفة من مجاراة أحد لهم فى الضيافة وبذل العطايا والهبات .

وموضعُ الترجيح والاستنتاج هنا إنما هو فى إرسال خالدٍ إلى البادية قصداً لرياضة النفس والجسد على خشونة الأعراب وشدائد الميادين .. فهذا ، وإن جرت به عادةُ بعض الأشراف فى حواضر الحجاز ، لم يقطع به قولٌ من الأقوال فى سيرة الوليد بن المغيرة وبنيه «الشهود» على احتمال الشهادة للمعنى الذى قدمناه .

ولكنَّ الأمرَ الموثوقَ به كلَّ الثقة ــ والذى لا موضعَ فيه لترجيح ولا استنتاج ــ أن خالدًا قد نشأ حيث نشأ فى الحاضرة أو البادية مستعدًّا للخشونة مستطيعاً لمعيشة الأعراب ، مستجيبَ السليقة[1]

(١) السليقة : الطبيعة والفطرة

والبيئة لما يتكلَّفه المجاهدُ فى أوعر القفار وأعنف الحروب ، وكانت له ضَلاعَة[1] العصبيين الأقوياء المعهودين بين رجال السيف ، وهى ضلاعةٌ توشك أن تَستمِدَّ من حماسة النفس وشهامة القلب أضعافَ ما تستمده من العضلات والأوصال . . .

فلم تُعْفِه العبقرية من ضريبتها التى لا مناصَ من أدائها . وآية ذلك أنه مات على فراشه فى نحو الخامسة والخمسين ، وليست هى بالسن الغالبة فيمن يموتون بداء الشيخوخة من غير علة أخرى .

وإذا تجاوزنا هذه المَظِنَّة ، وهى كافيةٌ ، ألفينا فى تراجم الأُسرة كلِّها ما يُنبئُ عن عوارضِ[2] الأُسر التى تهيِّئها الأقدار لإنجاب العباقرة فى شتّى المواهب والمزايا . .

فهذه الأُسرة الغريبة تكثر فيها عوارضُ الاختلاف عن جملة الناس فى تركيب الأعصاب خاصة ، ويُشاهَد فيها فردٌ أو أفراد تتجمع فيهم عِلَلُها وتُمعن بهم مخالفاتُها وعناصر شذوذها حتى تُسلمهم إلى الاحتلال والاضطراب كأنهم ضحايا الأسرة كلها فى سبيل إنجاب العبقرية منها .

---

(١) ضلاعة : قوة .

(٢) عوارض : ظواهر .

وكانت هذه العوارضُ مشاهَدةً فى أُسرة خالد وفى إخوته على التخصيص . فذَكَر كتابُ « الاستيعاب ، فى أسماء الأصحاب[١] » : « أن الوليدَ بن الوليد كان يروَّع[٢] فى منامه مثل حديثِ مالك سواء فى قصة خالد » . وعن مسندِ[٣] ابن أبى شيبة أن خالدَ بن الوليد كان يفزَع فى نومه ، فشكا إلى النبى عليه الصلاة والسلام . فقال له : « إن عفريتاً من الجن يَكيدُك » .

وبَذلت هذه الأُسرةُ الممتازة ضحيتَها الكبرى فى شخص سليلها عمارةَ بن الوليد أحدِ الإخوة المذكورين بأسمائهم من ذرية الوليد ابن المغيرة . .

وعمارة هذا هو صاحبُ عمرو بن العاص فى رحلةِ الحبشةِ[٤] رسوليْن إلى النجاشىِّ لتسليم المسلمين بها إلى قريش . .

وكان مولعاً بالخمر والغزل وَسِيماً محبَّباً إلى النساء . فلما كان بالسفينة مع عمرو وامرأتِه شرب ونظر إلى امرأة عمرو نظرةً مُريبة .

---

(١) « الاستيعاب ، فى معرفة الأصحاب ، ومؤلفة ابن عبد البر .

(٢) يروع فى منامه : يفزع ويذعر .

(٣) المسند : الكتاب الذى يصنف فى الأحاديث النبوية ، والمؤلف أبو بكر بن أبى شيبة المتوفى سنة ٢٣٥ هـ .

(٤) رحلة الحبشة : هجرة جماعة من المسلمين إلى بلاد الحبشة فراراً بدينهم . وقد أرسلت قريش وفداً منها إلى النجاشى لتسليم المسلمين إليها .

وقد نلمح عوارضَ الأُسرة هذه فى أعظم أفراد الأُسرة كما نلمحها فى هذا المسكين الذى ابتُلى بالثمن الفادح والضحية الكبرى[١] . فخالدُ بن الوليد ـ شرفُ بنى المغيرة ـ لم يفتنه الميلُ إلى المرأة كما فَتَن أخاه ، ولم يصرفْه قط عن عبء من أعباء البطولة ولا عن فريضة من فرائض العظمة والعبقرية ، ولكنه على هذا قد تعرض للمؤاخذة من عمر بن الخطاب ومن أبى بكر الصديق فى صدد الزواج المعجَّلِ فى غير حينه ، فسَبَى[٢] امرأة مالكِ بن نويرة ، وتزوج فى حرب اليمامة وهو بميدان القتال ، وسبى ابنةَ الجودى فى دُومة الجندل ، وقيل إنه فقد أربعين ولداً فى طاعون الشام وهو بقيد الحياة لَمَّا يجاوزْ الخمسين بكثير .

وتلك فى جملتها شواهدُ العوارض التى يقرر النفسانيون المحدثون أنها سِمات العبقرية فى منابتها : ومنابتُها هى الأُسَرُ التى تُنجبها وتبذل أثمانها قبل أن تنعم بمجدها وفخارها .

وكما ظهرت هذه العوارض فى لون من ألوانها على أخيه عمارة

---

(١) وصف عمارة (بالضحية الكبرى) لأن عمرو بن العاص تمكن من الكيد له عند النجاشى فأرسله النجاشى فى العراء مخبولا حتى مات .

(٢) سبى : أسر ، وستأتى القصة بالتفصيل فى حروب الردة .

ظهرت فى بعض ألوانها الأخرى على أخيه الوليد الذى كان مثلَه يُرَاعُ فى رُقاده . .

فهذا الأخ الكريم كان مع جيش المشركين فى وقعة بدر فأسره المسلمون ، وطال الكلام فى فدائه لغناه وعداوة أهله للإسلام ، فطلب آسرُه أربعةَ آلاف درهم ، وأوصى النبىُّ ألا يقبلوا فِديةً له غيرَ شِكَّةِ أبيه الوليد وهى درع فضفاضة وسيف وبيضة[1]. وكل هذه المطاولة والمساومة والوليدُ باق على دين الشرك فى أَسْرِ المسلمين . فلما تم فداؤه وذهب إلى أهله أعلن إسلامَه بينهم وهم كارهون ، وعجب المشركون لأمره فسألوه : هلا أسلمت قبل أن تُفْتدَى ؟ . . فقال: كرهتُ أن يُظَن بى أننى جَزِعت من الإسار . . وصبر على التعذيب والنكاية والحبس بين أهله حتى أفلت بعد جهد وحيلة ولحق بالنبى مشياً على قدميه ! . .

هذه أيضاً نفحة خالدية من نفحات تلك الأُسرة القوية التى تأبى لخلائقها إلا أن تحيِّر الناس وأن تَرِدَ عليهم من مورد التفاوت والإغراب والمخالفة للمألوف . .

وهى فى أطوارها المتباينة منجَمُ العبقرية الذى لا مِراءَ فيه ،

---

(١) درع فضفاضة : سابغة واسعة ، والبيضة : الخوذة من الحديد .

ومعدِنُ البطولة التى تُكتسب لصاحبها وهو فى الأصلاب[١] .

فها هنا نشأةُ بطل عبقرىٌّ مدَّخَرٍ للقيادة والرئاسة بميراث حَسَبه وطبعه ، ومَلَكات نفسه وجسدِه ، جاءته البطولة وهو ينتظرها ولا يشك فيها ، وتهيأ لها بالقدرة على الشدة والرخاء ، والنعمة والبأساء ، ويكادُ الصدق والإشاعة معاً يتوافيان[٢] إلى دلالة واحدة فى تربية هذا البطل المنذور للبطولة والعبقرية من قبل ميلاده ، فأكْلة الضب التى سبق ذكرها واحدة ! وغيرُها أكلات مسمومات يبدو لنا أنها مخترعة أو محرَّفة ، ولكنَّ اختراعَها وتحريفها يدلان لا محالة على شىء . وهو اشتهارُ خالد بترويض بِنْيته على تجرع الغُصص[٣] التى يتقزز منها الناس ويخافون منها الهلاك . ففى « اليواقيت »[٤] للقُطْبِ الشَّعْرانى أنه حاصر قوماً من الكفار فى حصن لهم فقالوا : تزعم أن دين الإسلام حق ؟ . . فأرنا آيةً لنُسلم . فقال احملوا إلىَّ السمَّ القاتل ، فأتَوْه به فأخذه وقال : بسم الله ، وشربه فلم يضرّه ، وتردد مثلُ ذلك فى كتاب « الإصابة »[٥]

---

(١) الأصلاب : جمع صلب وهو الظهر ، والمقصود (تكتسب لصاحبها وهو لا يزال جنيناً) .

(٢) يتوافيان : يتلاقيان .

(٣) الغصص : جمع غصة وهى الشجا فى الحلق قال تعالى (وطعاماً ذا غصة) .

(٤) اليواقيت : اسم كتاب .

(٥) الإصابة فى تمييز الصحابة ، ومؤلفه ابن حجر العسقلانى .

فروى عن مصادرَ شتى أنه لما قدم الحيرة أُتى بسُم فوضعه فى راحته ثم سمّى وشربه ، ولم يؤثر فيه .

وقد سمعنا نيتشه – بشيرالسوبرمان[١] فى العصر الحديث – يقول : إن السُّم الذى لا يُميتنى يزيدنى قوة ! . .

فهذه بنيةُ بطل نشأَتْ للمجد على هذا الغِرار[٢] .

---

(١) السوبرمان : الإنسان الكامل .

(٢) الغرار : الطراز والأسلوب .